العدول .. والعدول عن العدول

قصة بقلم عادل ابو شنب

ـ ١ ـ

دخل أكرم زهدي المطعم وجلس الى مائدة نائية .

كان وحيدا . وكان الظلام قد جلس هو الآخر على الموائد جلسة مستريحة . عيناه مصباحان مضيئان في العتمة ، وافكاره تتحدث بصوت عال كانه قهقهة .

كان عليه ان ينتظر عدة ساعات قبل ان يأتي من يحمله الى المطار ، وها هو يخلو الى ساعة راحة لم تتوفر له منذ أيام ، وربما منذ سنين.

قيل له بالهاتف :

ـ امض الى المطعم وانتظر .

وفتحت الكلمات في ذهنه املا ، جرحا . الامل يا أكرم غصن شاب يميس امام عينيك . القدس بعيدة .. مستلقية تحت الجسد الاسرائيلي كعذراء تغتصب لاول مرة ، وانت ثغر يبصق دما ، مستلق كجثة لم تجف دماؤها بعد ، تحاول وتحاول دونما جدوى .

افكار .. افكار .. افكار . كان كمن يشاهد لوحة لبيكاسو القديم.

ـ ٢ ـ

الحفاة يصافحون ازقة السان ميشيل بأقدامهم ، والاسياخ الحديدية الطويلة تدور بالخنازير السمينة امام مواقد تعمل بالغاز . ثمة فتيات يدخن وهن يقفن امام واجهة محل يبيع كتبا جنسية ، وفتى وفتاة يتبادلان القبلات الطويلة في مدخل البار المجاور ، وعلى الرصيف جلس رسام من بنغلاديش يرسم مسيحا مصلوبا . عازف الكمان الاعمى يمر بقوسه على أوتار كمانه ، فلا يلتفت اليه احد ، والفونوغراف العتيق في المطعم التركي يبث باعلى صوت : امان يا لللي امان ، والشابات الجميلات يبعن صحفا يسارية كاسدة . وكان ثمة هبيون بشعور طويلة وعيون غائرة يضحكون دونما سبب ، وفوادون يقتنصون زبائن لعاهرات منتظرات في الفنادق القريبة .

سكارى وسياح واصوات والوان واضواء . نحن الان في قلب باريس النابض .

ـ اين المطعم ؟

ـ ها هوذا

ـ مظلم

ـ مكان مناسب .

ـ ٣ ـ

واستفاق اكرم زهدي من افكاره .. مرحبا . اهلا وسهلا . الوجه باسم والعينان ضاحكتان . وقبّل الثلاثة جباه بعضهم البعض .. كما كان الاجداد يفعلون في الجاهلية .

ـ والله سلامات .

ـ سلامات

ـ كيف الحال ؟

ـ عال .. عال العال .

ـ ٤ ـ

انا أكرم زهدي . شاب في الحادية والعشرين ، يعيش هموم هذا القرن كأنه ولد في اوله . عربي فح ، يضغط على القاف ويفخمها ، يغضب ويرضى بسرعة ، يعشق الخمر وانتساء الجميلات وصوت امكلثوم، يبكي اذا ما ظن ان كرامته قد امتهنت ، يبيع الشهامة دون مقابل. عربي حقيقي من بلاد تشرق شمسها كثيرا ، وان كانوا يظنون هنا انني لاجيء من جمهورية ساخنة في اميركا اللاتينية . بشرتي سمراء منذ الولادة ، لها لون الحليب الممتزج بالقهوة ، اكبر كل يوم يوما اخر تعيسا في ازقة هذا الحي الباريسي الذي أحبه واكرهه في وقت واحد .

ـ ٥ ـ

كان اكرم زهدي هناك . لم يكن مذنبا عندما جاءوه وبأيديهم بنادق قصيرة القامات ، واخذوه الى قبو رطب قريب من الكنيست وانهالوا عليه ضربا . كان مجرد شاب دهش .

قالوا وقتئذ :

ـ حتى الدهشة .. الدهشة ايها الوغد العربي .

قال كمن يعتذر :

ـ لكنني لا امارس عملا محظورا . من بيتي للمدرسة ، ومن مدرستي للبيت .

واعادوا الجملة وضغطوا على الاحرف باسنانهم كأنهم يقضمون طعاما صلبا :

ـ تمارس الدهشة .. كأنها مهنتك .

فال :

ـ لا استطيع . ارجوكم . لي عينان صغيرتان ، لي حاجبان ،ولقد دربت قسماتي من قبل ان اولد على ان تحترف الصمت والحياد ، ومع ذلك لم استطع الا ادهش . ارجوكم قدروا موقفي . جئتم وفي جعبكم بنادق قصيرة القامات . من ذا الذي يستطيع الا يدهش ؟

قالوا :

ـ نعترف اذا انك دهشت ، وان عينيك اتسعتا وحاجبيك تقوسا.

انت واحد منهم .

ولم ينم . ظل يعد أحجار الزنزانه دون ان يراها . فرأ اسعارا كان يحفظها منذ الصغر . ردد طويلا امام رفاق صغار توهم انهم معه : « حكره ، بكره ». قال لي ربي : عد للعشرة : واحد . اثنان. ثلاثة . اربعة . خمسة . ستة. سبعة . ثمانية . تسعة . عشرة »تذكر اليهوديات اللواتي ضاجعهن، والعربيات اللواتي انتظر تحت شبابيكهن، غنى ، بسمل ، احصى عدد الاصدقاء وعدد الاعداء ، فاتم ، فعد ، لكنه لم ينس قط ان عينيه ما زالتا تمارسان تلك المهنة اللعينة، وانه يشبه جثة مات فيها كل شيء الا عيناها ، وحتى هنا ، في باريس، ما زال يتسلق دهشة ويواجه العالم بها .. كأبله صغير .

— ٦ —

كان اكرم زهدي سعيداً كبلبل يعود الى عشه بعد ضياع طويل، واكثر من مرة قام اليهما وعانقهما كأنه يعانق شجرات برتقال فلسطينية تركها ابوه وفر ناجيا بنفسه الى دمشق ليعمل كنتاسا ، ثم بائع حليب ، ولينجب سبعة ابناء جدد من زوجة شامية ، غير تلك التي تركها منبوذة في فلسطين ، عرف اسماءهم عن طريق رسائل اللاجئين الى ذويهم التي تبث من راديو دمشق ..

— ٧ —

في جلسته ، في المطعم ، ووقع الاقدام المتوقع ما يزال سرابا . كانت حواسه مستنفرة كأنها آلات خرجت لتوها من المصنع . « امان ياللي امان » تثير فيه احساسا جديدا بالالفة . نحن اتنان ايتها المغنية المجهولة ، نتحد في وجه عدو غامض غير مرئي ، ننتظر ان يشق الصباح الوشاح الاسود . يا صبر أيوب .

خيل اليه انه يمارس ، منذ اللحظة ، دهشة من نوع اخر جديد. دهشته هذه ليست من نوع تلك التي حطت رحالها على قسمات وجهه عندما جاء الجنود الاسرائيليون اليه . عيناه لا تتسعان ، وحاجباه لا يتقوسان . استهجانه ليس الان استهجانا مقيتا غير منتم، وبهجته باكتشافه نفسه .. عبرت به ظلمة المطعم الى شارع ما في قدسه التي هرب منها قبل سنوات . الوجوه لا تحمل عيونا وانوفا وآذانا ، والاجساد تنبختر كأنها عيدان من الخيزران ، والاقدام تعانق الارض في فرح . انه ، اللحظة ، قادر على الادهاش بدلا من الدهشة ، تعالوا الي" يا حملة الكلاشينكوف . انا قادر على ان اضع قدمي على اعمدة صحف العالم . قادر على ان ادخل عيون الملايين.

— ٨ —

قال لهما :

ـ انا ملتزم يا اخوان . ألست واحدا ممن عاشوا مرارة التشتت الفلسطيني ؟ ان اساهم في الاستيلاء على طائرة من طائرات العدو ... مهمة لن اتردد في قبولها . استطيع ان اؤجل دراستي او الغيها. اريد ان البس الرداء المبرقع وادخل بيارات البرتقال المسبية بالكلاشينكوف . امنياتي هذه .. طالما وضعتها الى جانبي على مخدة النوم في غرفتي الباريسية الباردة .

— ٩ —

وضعنا اعيننا في مواجهة عيني اكرم . كانت نظراتنا تتسلل عبر غابة من القناني الزجاجية الفارغة .. تحاول ان تجتذب العينين التائهتين وسط العتمة التي تزدان بها موائد المطعم ، ولما يئسنا .. تركناه لسكره وخرجنا بنظراتنا الى الطريق. كان كل ما يقلقنا الا نستطيع ، وحدنا ، القيام بالمهمة التي جئنا باريس من اجلها .

وصفق اكرم زهدي بيديه فخف اليه بيير نادل المطعم :

ـ المزيد من البيرة السوداء يا بيير ..

والتفت الينا :

ـ لماذا لا تشربان ؟.. نسيت انكم هناك تكثرون من شرب الماء !

— ١٠ —

وأغمض اكرم زهدي عينيه . كان يعرف ان هذين المصباحين المتقدمين ابدأ في وجهه هما وحدهما الممر الى داخل نفسه . للصمت الان ظلال تتسلق الجدران ، وتتخذ مجلسها الى جانبه ، على كتفيه وفي وجهه .

ومزق احدهما الصمت بكلمتين ، صرختين :

ـ قل . قل .

وقال كأنه يستفيث :

ـ كلا . لست اصلح لهذه المهمة ، لاية مهمة . غالبا ما اصاب بالدوار وانا اقتل نملة ، فلماذا اختاروني انا ولم يختاروا سواي؟ الانني فلسطيني بالوراثة فقط ؟

— ١١ —

ما دمنا في باريس فلنتصرف كسياح .

كنا زرنا اللوفر ، ووقفنا امام الجوكندا ، واجتزنا الشانزليزيه ذهابا وايابا اكثر من مرة ، ووقفنا امام مبنى جريدة الفيغارو نقرأ الاخبار الطازجة . كنا تناولنا السجق المحشو بالتوابل ، وصعدنا الى اعلى طابق في برج ايفل . ركبنا المترو ، وذهبنا بالقطار الى فرساي. شاهدنا انفولي بيرجير وطفنا بالبيفال . كنا سائحين ، لكننا في الوقت نفسه كنا نعيش في صدورنا ساعات مضنية قادمة . سنركب الطائرة الملأى بالمسافرين . نحن سياح من بورتوريكو او من كوستاريكا ، وجهتنا تل ابيب ، وعلى ارتفاع اكثر من ثلاثين الف قدم سنعلن استيلاءنا على البوينغ . كذا نثبت ، بشجاعة ، اننا فلسطينيون موجودون ، وان معركتنا لم تنته بعد .

كان وجهه صافيا وعيناه مشرقتين ، هل اعجبتكم باريس ؟ وقبلنا وراح يثرثر بسرعة ، حدثنا عن دراسته وعن جوزفين الشقراء القادمة من بوردو لتدرس وتقيم معه كزوجة ، وعن فرنسيته المشبعة بلكنة فلسطينية ، وعن سهراته على ضفاف السين ، يأكل ويحلم ، وعن هربه من سجن عسقلان ، وسألنا عن فلسطينه تلك التي يعيشها الان سطورا قليلة في صحف باريس فقلنا انها تعيش اسوأ حياة .. فدمعت عيناه وطلب المزيد من زجاجات البيرة .

— ١٢ —

انا شاب من كوستاريكا ، يريد ان يمضي ، باختياره الناجز ، عدة اسابيع في كيبوتز اسرائيلي ، يبني مع البناة هناك . يساعد امة صغيرة على النهوض وسط بحيرة من الحقد العربي . اي ظلم ان اضع على فمي كلاما كهذا ، ولكن .. لا بأس ما دامت الغاية تبرر الواسطة. اطمئنا .. ساكون رابط الجأش اكثر مما تتوقعان ، حفظت الخطة عن ظهر قلب .

— ١٣ —

قال كأنه يستفيث وقد نفض الصمت الذي تسلق ثيابه ، كما

على عتبة الزمن

الآنيّ يا زمني
منسيّ في حانات الانسان
زوادتي الخمر
وطعامي قهقهة الفقراء
تدنيني من ظل الغربة
فاخر على كفيّ
تنادمني الريح
ياريح :
ضفائر امي تدعوني
لكن الدرب الى سنجار طويل
وما بين الماضي في اروقة الليل
وما بين الآتي في محرقة الليل
مزمار رحيل
ويقاتلني النهر
يا نهر
ضفافي يحفرها الغيب
وقوادمي الثكلى
هدّتها أجنحة الرمل
اوصاب منها تأتيني
فيهدهدني ركب
ودمي بين الاثنين
جسور للآتين من الغربة

* * *

الآنيا زمني
لا أعرف
من أي الطرقات أتيت
وكيف تناساني الجرح

* * *

والجرح على عينيّ
نشيد يعزفه الهدب
تدنيني من كف القبر
والقبر يريد كفن
وأنا
منبوذ احمل في بغداد صليب الدمع
وأمشي ميتا
يشنقني الفقر
زوادتي الخمر
لا كفّ صديق تمنحني بسمة
وضفائر امي تدعوني
وأصابع امي تبكيني
يا امي اجهل كيف البين يكون عويلا
أجهل كيف النهر يكون خرير
وأنا
في بغداد الاحلام غريب
وضفائر امي تدعوني
لكن الدرب الى سنجار طويل
وما بين الماضي في أروقة الليل
وما بين الآتي في محرقة الليل
مزمار رحيل

بغداد — جاسم الياس

ينفض عنها الغبار :

ـ اسمعا جيدا . معركتنا فاشلة ، ففيم تكابر ؟ دمرنا بلادنا على امتداد نصف قرن ، وها نحن ندمر شعبنا فردا بعد اخر . دراستي مجدية اكثر . ماذا فعلتم بالطائرات التي اختطفتموها طوال عدة سنوات ؟ منكم من استسلم ، ومنكم من خدع ، وفيكم من انتحر عندما وجد الباب موصدا . فتيان وفتيات كالربيع زهوا يعيشون الان في زنزانات رطبة . الوقود يحترق والحصى لا تصير طعاما . حتى السلطات التي استنفرت الشعوب لمعركة تحرير لم تستطع ان تحتفظ برهائن او بطائرات مختطفة خوفا من انتقام . خير لكما ان تعودا من باريس كسائحين . قولا لمن خطط ان فلسطين قد ماتت في قلب اكرم زهدي ، وان اكرم قد مات منذ ولد . قولا انه يعيش الان حياة مستعارة ، يتناسى فلسطينه بسبب الدراسة وقناني البيرة السوداء وجوزفين الشقراء ، والسطور الفلسطينية القليلة التي تنشر في الصحف ، والهم الذي تسلق جسده يوما بعد يوم حتى استقر في عينيه .

أفكار .. افكار .. افكار . كان كمن يشاهد لوحة لبيكاسو القديمة .

ـ ١٤ ـ

قام اكرم زهدي مترنحا وراح يطوف على الموائد ، يردد بصوت عال الجملة القديمة التي حملها مع متاعه في حقيبة الهرب :« حكره. بكره . قال لي ربي عد للعشرة : واحد . اثنان . ثلاثة . اربعة . خمسة. ستة . سبعة . ثمانية . تسعة . عشرة » كان كأنه في حيه بالقدس، يشترك مع اولاد السنوات العشرين التي مضت ، يصفهم واحدا بعد الاخر ، ويختار منهم بقرعة « الحكره بكره » البادىء باللعب . هذه المرة وقعت العشرة عليك يا أكرم . نجت الموائد والقناني الفارغة وبيير نادل المطعم وحتى جوزفين الشقراء .. الفرصة سانحة فانت انك من بلاد تشرق شمسها كثيرا .

الوجه متجهم لكن الجبين باذخ . الالوان والاضواء والاصوات تدخل المطعم دفعة واحدة كأنها كتيبة جنود مدججين بالسلاح ، تقول ان العملية خاسرة حتى ولو نجحت ، وان فلسطينك لن ترفع رأسها المترنح بطائرة مسبية في الجو ، وان على الارض من سيسفه عملك ، ومن سيعيد الطائرة بملاحيها وركابها ، ومن سيزج بك في جحيم السين والجيم والزنزانات التي تأكل العمر . صحيح . صحيح يا اكرم زهدي ، لكن اللعب لا يمكن ان يبقى لعبا ، والاطفال لن يظلوا اطفالا . الرجال وحدهم هم الذين يختارون انفسهم بانفسهم . من داخلك انت رشح عقلك وجسدك وحياتك في سبيل البرتقال المسبي والدهشة ، مجرد الدهشة التي سجنت بسببها .

وراح يدق رأسه بجدران المطعم .. وظل الصديقان صامتين كأنهما ميتان .

ـ ١٥ ـ

بدا اكرم زهدي يبكي . كانت عيناه بدموعهما البيضاء شبيهتين بمصباحين ، وخصه بيير بنظرة صغيرة من جانب فمه ، وبابتسامة لا مبالية وضعها على شفتيه .. كأنه يعرف هذه الدموع معرفة جيدة.

ودونما وداع .. القى الشابان نظرات سريعة على الوجه الملبد بالغيوم ، ووضعا على المائدة بين غابة القناني الفارغة جواز السفر الزيف .. لعل وعسى !

دمشق — عادل ابو شنب